لمحة عن المدرسة الأدبية الإسلامية الهندية
كيف نشأت وتكوّنت، وبماذا تميّزت(١)

لقد تفاعلت في الهند عوامل ثقافية، وعنصرية، وحضارية، وسياسية، فالهند مهد اللغات والثقافات والفلسفات القديمة، ومن الطبيعي أن يتأثر الشعب المسلم بكل هذا في قليل أو كثير، ونتيجة لهذا التفاعل تكونت مدرسة مستقلّة ذات نفسية خاصة وطابع خاص في الأدب الإسلامي، تمتاز بقوة العاطفة، ورقة الشعور، والدفق والعمق والقدرة على الضرب على أوتار القلب، وإثارة الحُبّ والحنان، والتفنن في الأنغام والألحان، والحماس الإسلامي، وشدة التعلق بشخص النبي ﷺ وبَلَديه المشرّفين: مكة والمدينة، والجزيرة العربية الحبيبة، وابتكار معانٍ وأخيلة وتعبيرات لم تُسبَق إليها.

وقد أفاد هذه المدرسة الأدبية كون المسلمين في هذه

---

(١) مقال قدم إلى مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي الذي انعقد في دار العلوم ندوة العلماء وحضره عدد كبير من أدباء العرب والهند في يناير سنة ١٩٨٦م.

البلاد في قلة دائماً، وكونهم قد حكموا هذه البلاد ثمانية قرون على الرغم من كثرة عدد المحكومين من غير دينهم، واعتزاز هؤلاء المحكومين الزايد بفلسفاتهم وعلومهم التي لا يعدلون بها علماً وفلسفة، وحضارتهم القديمة التي يعتبرونها في قمة الحضارات القديمة، وساعدت على ذلك أيضاً عنصرية أهل الهند المتطرّفة، التي تعدّ المسلمين دائماً أنجاساً أجانب، وتميّز -حتى في المجتمع الهندوسي- بين طبقة وطبقة، وإنسان وإنسان، مثلما تميز بين أشرف إنسان وأخس حيوان.

وقد أفاد هذا الواقع المسلمين بصفة عامة، والشعراء والأدباء منهم بصفة خاصة مميّزات نفسية عميقة، في مقدّمتها قوة الصمود أمام الهجمات والتحدّيات -سياسية كانت أو فكرية أو فلسفية أو أدبية- لأنهم بغير ذلك لا يستطيعون أن يحافظوا على إسلاميتهم وبقائهم أمة ذات عقيدة خاصة، وشريعة معينة، وشخصية متميزة. وأفادهم ذلك أيضاً الولاء الزائد للإسلام، وافتخارهم به، والتغني بأمجاده وأبطاله وعظمائه، وألهمهم ذلك توجيه القريحة

الشعرية الأدبية والكتابية، والمقدرة البيانية إلى شعر الملاحم الإسلامية، فنظمت أقوى ملاحم إسلامية شعرية(١)، وأطولها وأجملها في «أوردو» لغة المسلمين ولغة الهند الشعبية الأرقى، وانتشرت في ربوع الهند انتشاراً لم يعرف لأي منظومة تاريخية أو قصصية في بلد من بلاد الإسلام، وكان لها فضل كبير، ودور حاسم في إثارة العاطفة الإسلامية وتنمية النخوة الدينية وتحمّل الصدمات العنيفة، والحوادث العائلية، والكوارث الفردية، في إيمان واحتساب، لأنها تذكر بحكايات البطولات الإسلامية الأولى، واستماتة المسلمين في سبيل الله، وما ظهر من البطولات من السيّدات المسلمات في

---

(١) من أكبرها «صمصام الإسلام» للسيد عبد الرزاق الحسني، نظم فيها «فتوح الشام» للواقدي، في أردو، وهي منظومة طويلة تشتمل على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيتاً، وهي في غاية القوة والعذوبة وصدق التصوير وبراعة التعبير، كانت تنشد بمناسبات مختلفة في الأسر الإسلامية، فتحرك الحمية الدينية وتلهب العاطفة الإسلامية. راجع مقال «الكتب التي عشت فيها» للكاتب.

ومنها مزدوجة «مدّ الإسلام وجزره»، المعروف ب «مسدّس حالي» للشاعر الإسلامي الكبير ألطاف حسين «حالي»، وفيها وصف البعثة المحمديّة، وتصوير العصر الجاهلي، ووصف صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما قاموا به وقام به أتباعهم من دور إصلاحي ثوري بناء رائع في التاريخ الإنساني، وما اتصف به الجيل الإسلامي الأول مع ذكر ما أصيب به المسلمون أخيراً من تقهقر وانحطاط، والمجتمع الإسلامي من تدهور وانتكاس في أسلوب شعري ساحر.

ومنها «شاهنامه إسلام» للشاعر حفيظ الجالندهري، وهو في قمة الملاحم الإسلامية المشهورة في شبه القارة الهندية، ومن الدواوين الشعرية المقبولة الشعبية.

بعض المواقف، ثم تحمّل المجاهدين الغزاة والأسر والبيوتات، شهادة إخوانهم وأبنائهم، والسيدات بمصاب أزواجهن وأبنائهن، في صبر وشكر، وإيمان واحتساب.

ومن نتائج هذا الواقع الجغرافي التاريخي السياسي، تدفُّقُ شعر المديح النبوي وقوته وتأثيره، ورقّته وعذوبته، فقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلة وجاؤوا بنبويّات، لا مثيل لها في الأدب العربي عبر القرون، فقد ضعف هذا الصنف في الشعر العربي -بعد قصيدة البوصيري الميمية وبعد نبويات سيدي عبد الرحيم البرعي- ضعفاً شديداً، ولا يزال سرّ هذا التدفق والقوة والتأثير موضوع تفكير الباحثين وعلماء الأدب، وقد علله بعضهم بالبعد والهجر، فلهذين تأثير كبير في تفجير ينابيع القلب والحب، وتوليد المعاني الغريبة، وإثارة الكنوز في أطول مدة قضاها المسلمون بقصائد المديح. فقد كان الزمن زمن القراصنة البحريّين، وزمن السفن الشراعية، والطرق غير آمنة، والانتقال من مكة إلى المدينة لم يكن مأموناً، وقوافل الحجاج تتعرّض للخطر والغارة، فاستعاضوا عن السفر بالشعر للتعبير عن حنينهم وأشواقهم، ولم يزل الشعر بريد

القلب والشوق، وهو الحمام الزّاجل الذي لا يزاحمه شيء ولا يعوقه شيء، وإذا امتلأت الكأس طفحت، وإذا طفحت فاضت، ولا بد أن يعقب الريّ السّكر، ولا بد أن يعقب السّكر التغنّي، وما أجمل ما قاله الشاعر العربي:

سقوني وقالوا لا تُغنِّ ولو سقوا جبال سُلَيمى ما سُقيتُ لغنَّت

ثم جاء دور الحكم الإنجليزي الغاشم الحاقد على المسلمين، فقد كانوا منافسهم الأكبر في قيادة الركب الإنساني وتوجيهه الفكري والحضاري، وهم الذين قادوا الثورة عليهم سنة ١٨٥٧م وتولوا كبرها، وزاد الطّين بلّة والطنبور غنّة الشعور بالحاجة إلى مواجهة الغزو الثقافي العقائدي الخلقي والحضاري، والاستعمار الداخلي الباطني، وهو أضرّ بكثير من الاستعمار السياسي والإداري، فنبغ جيل جديد من الأدباء والكتّاب والشعراء والمؤلّفين، يقبلون هذا التحدِّي ويعارضون الحكم الإنجليزي وما يحمله من مخططات رهيبة دقيقة، لإنشاء جيل جديد من المثقفين يحقّق مآربهم وينفّذ مخطّطاتهم، منسلخ عن الإسلام، بل ثائر عليه مزدرٍ له.

هنالك نهض شعراء عصاميّون عبقريون مثل لسان

العصر السيد أكبر حسين أكبر الغله آبادي، والعلامة الدكتور محمد إقبال، والشاعر المبتكر ظفر علي خان، فلم ينشؤوا في الجيل المثقف الجديد نخوة إسلامية فحسب، بل قوة المقاومة للتحدّيات الجديدة، وكراهة للحضارة الوافدة الدخيلة المستعبدة، تارة في أسلوب شعري لاذع متهكّم، وتنكيت قارص، كما فعل أكبر الإله آبادي(١)، وطوراً في أسلوب جدّي وشعر بليغ يتدفّق قوة وحماساً، ويسيل رقة وعذوبة، وقد أحدثت فيهم الثقافة الغربية موجة ردّ فعل عنيفة في مشاعرهم وتفكيرهم، حولت شعرهم إلى شلاّل يتدفّق بقوة وينحدر بقوة.

وحقيقة تاريخية غريبة أخرى تحتاج إلى دراسة أمينة محايدة، وتحليل نفسي تربوي، وهي أن عدداً كبيراً من الشباب المسلم الذكي من العواصم العربية ذات المركز القيادي في العلوم الدينية والآداب الإسلامية يمّموا الغرب ومكثوا في الجامعات الغربية الرئيسية خصوصاً في إنجلترا وفرنسا، ثم رجعوا إلى أوطانهم بالروح الحرّة المنتقدة الثائرة على أسس الحضارة الغربية ومثلها وقيمها،

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتابنا: «الحضارة الغربية الوافدة، وأثرها في الجيل المثقّف» كما يراها شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإله آبادي، طبع مكتبة الصحوة في القاهرة.

الواعية لأهداف الاستعمار الغربي البعيدة ومخططاته الدقيقة الرهيبة لصياغة الشرق الإسلامي، صياغة غربية إلحادية متنكرة للإسلام، مع الثقة بصلاحية الإسلام لا للبقاء فحسب، بل للقيادة العالمية، ومع الحماس الزائد للإسلام، كما كان الشأن مع فيلسوف الشرق وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، وزعيم حركة الخلافة الأكبر وزعيم حركة التحرير الكبير مولانا محمد علي دفين القدس، ولا أزيد على ذلك بتسمية طائفة من كُتّاب مصر وسوريا والمغرب العربي، والأدباء والمؤلفين منهم، الذي كادوا يحتكرون القيادة الفكرية والأدبية في الشرق العربي الإسلامي فترة غير قصيرة، وكانوا القدوة والمثل الكامل، ليس للشباب الجامعي فحسب، بل للشادين في اللغة العربية، والنقّاد والأساتذة.

أما الدكتور محمد إقبال، فأنا أنقل هنا قطعة من مقدمتي لـ «روائع إقبال»، تصور في قوة وإيجاز أعظم ما اتّصف به من سمات ومميّزات:

(إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح، والحب، والإيمان، وقد تجلّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته، أعظم مما تجلى في أي شعر

معاصر، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح، والحب، والإيمان، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح، وسموّ النفس، وبُعد النظر، والحرص على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذّيان الحب والعاطفة، ويبعثان الإيمان بالله، والإيمان بمحمد ﷺ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها.

إنني أحببتُه وشُغِلتُ به كشاعر الطموح والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية الماديّة، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية.

وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري، وثارت عواطفي، وشعرب بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي، وبحركة للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري)(١).

---

(١) «روائع إقبال» طبع دار القلم الكويتية، و «المجمع الإسلامي العلمي» بندوة العلماء، الهند، ص/ ١١و٢٥.

أما محمد علي فقد تجلّت عبقريته في مقالاته الإنجليزية التي كان يحلّي بها صدر صحيفته الأسبوعية الإنجليزية (COMRADE) والتي كانت تعتبر مثالاً بليغاً رائعاً للأدب الإنجليزي المتهكّم اللاذع، الذي لا يقدر عليه إلا من تذوّق اللغة كأبنائها وأدبائها- فنوع التهكّم والتنكيت في لغة من أدق أنواع الأدب التي يصعب تقليدها- وكانت مقالاته ملتهبة بالحماس الإسلامي، والنقد اللاذع للحكم الإنجليزي، يحرص على قراءتها الحُكّام الإنجليز، ويتلقفون كل عدد بلهف وشوق، وكذلك افتتاحياته لصحيفة «همدرد» الأردية التي خلفت «كومريد» فكانت قوية جريئة، وله شعر قوي في أردو، أبدى فيه عواطفه الإسلامية وميوله الجهادية والحب للنبي ﷺ، وحب الموت فداء للإسلام والشهادة في سبيله، حفظته الصدور وفاضت به الألسنة والأقلام.

أما ظفر علي خان منشئ صحيفة «زميندار» السيارة، فكان من كبار شعراء عصره، ينظم القصائد الطوال عفو الساعة وفيض الخاطر، وله اقتدار عجيب على القوافي الصعبة والبحور العريضة، وشعره حداء مثير للركب الإسلامي الناعس، ورجز مطرب للجيش الإسلامي المرابط، وما قاله من شعر في المديح النبوي من أقوى وأبلغ

ما قيل فيه في العصر الذي أدركته، وقد كانت أعداد صحيفته تصادر وتمنع بين آونة وأخرى وكانت صحيفته تغرّم بغرامات باهظة، وهو لا يمتنع عن النقد اللاذع للحكومة الإنجليزية وللهندوس المتطرّفين المهاجمين للإسلام والمسلمين.

لقد كان للحرب الكونية الأولى (١٩١٤م-١٩١٨م) وحملات الحلفاء، وتضعضع الخلافة العثمانية آثار سيئة على البلاد الإسلامية لا سيما الهند الإسلامية التي هبّ شعبها المسلم يداً واحدة لمناصرة الخلافة العثمانية وتأييد قضيتها، وجعلها قضية الموت والحياة وشغله الشاغل، وما كادت الخلافة العثمانية تنهار أمام الحملات الشرسة التي كان يشنُّها الحلفاء، حتى دَبَّ الحماس في قلوب مسلمي الهند واشتعلت العاطفة الإسلامية والجذوة الإيمانية بصفة عامة.

هنالك طلع على أفق القيادة الإسلامية -فضلاً عن الصحافة الإسلامية -هلال جديد أصبح بدراً في مدة قريبة، وهو صحيفة «الهلال» لمولانا أبي الكلام آزاد زعيم حركة الخلافة الكبير، ورئيس المؤتمر الوطني العام، ووزير التربية الأول في الجمهورية المستقلة، فكانت مقالاته في هذه الصحيفة في غاية القوة والبلاغة الأدبية، كأنها تكتب بقلم

من نار، وهو الذي أدخل في اللغة الأردية الكلمات والتعبيرات القرآنية فامتزجت بها وزادت في قوة اللغة والبيان، وألفها الأدباء والكتّاب، ويصح أن يقال إنه انتهج أسلوباً إسلامياً قرآنياً أدبياً أردياً جديداً، فكان أدب «الهلال» السحر الحلال، والماء الزلال، وفي القوة الشلاّل، النازل من مكان عال.

وكان من حسن حظّ الشعب المسلم الهندي، ومن تيسير الله تعالى للدعوة الإسلامية والأدب الإسلامي، أن الشعراء لم يتجهوا في تلك الفترة اتجاهاً سلبياً ساخراً من الإسلام هازئاً بقيمه ومثله، بل كان فحول الشعراء، وأصحاب المدارس الشعرية المتميزة يغلب عليهم الإيمان بالله والحب للرسول، فكان أئمة الشعر الأردي في الزمن الأخير شعراء مسلمين محتشمين، عدد منهم يلتزمون التزاماً إسلامياً كاملاً، في مقدمتهم وعلى رأسهم الشاعر فضل الحسن حسرت موهاني، وشوكت علي فَانِي بديواني، وأصغر كوندوي، وسيد علي سكندر جكر مراد آبادي، وخواجه عزيز الحسن مجذوب، وأمجد الحيدر آبادي، وحفيظ جالندهري، وإقبال أحمد سهل، وماهر القادري، وعلي سكندر وجد الأورنك آبادي، ونشور واحدي(١)،

(١) الكلمات الأخيرة في الأسماء يتلقبون بها في الشعر على طريقة شعراء الفارسية.

وآخـرون يطول ذكـر أسـمـائهم، فلم يبـتلَ الأدب في الهند بمثل مـا ابتلي به فـي الشـرق العـربي بـالفـوضى الفكرية، وتحرُّر من جميع القيود والآداب(٢).

ونبغ بجوارهم كتّاب في أردو يعتبرون منشئي مدارس أدبية ممتازة، وأسـاليب مـرموقة نموذجية، كلهم إسـلاميون في فكرهـم وعـقـيدتهم يـجـمـعون بين الدراسـات العـمـيقـة الواسـعة، والأفكار الناضجة المختمـرة، والأهداف المعيّنة الصالحة، والأقـلام الرشـيقـة البليغة، نخص بـالـذكر منهم العـلامـة السـيـد سليـمـان النـدوي، ومـولانا عـبـد السـلام الندوي، والأديب الكبـيـر مـولانـا عـبـد الماجـد الدريابادي، ومـولانا مـناظر أحـسـن الكيـلاني، ومـولانا عـبـد البـاري الندوي، والشـيخ معين الدين الندوي، والأسـتاذ خليق أحمد النظامي، والأسـتـاذ سـعـيـد أحـمـد الأكـبـر آبادي، والسـيـد صـبـاح الدين عـبـد الرحـمن، وذلـك على سـبـيل المثـال والإجمال، لا الاستيعاب والتقصّي.

هذا في مـا يخـتص بـالكتـابة الإسـلامـيـة والبـحـوث العلمـيـة، أمـا في مـجـال التـحـقـيق والدراسـات، والتـحـليل

---

(٢) يستثنى من هذه الكلمة شاعران متفلتان من ربقة الدين، هما بشير حسن جوش، وفيض أحمد فيض.

العلمي، والدراسات المقارنة، التي قد يكون لها من التأثير على الناشئة، والشباب المثقف، ما لا يكون في أكثر الأحيان للأدب والشعر -لأن الخضوع للفكر والعقل يكون أكثر عمقاً وأبعد أثراً من الخضوع للشعور والعاطفة والحاسّة الأدبية- فقد نبغ في الهند في آخر القرن التاسع عشر المسيحي، وأوائل القرن العشرين كتّاب محققون ومؤرخون نوابغ دونوا التاريخ الإسلامي، وأبرزوا السيرة النبوية، وعرضوا الحضارة الإسلامية، وأرخوا لعدد من نوابغ المسلمين ومفكريهم وقادتهم في أسلوب جذّاب، وفي دراسة تاريخية دقيقة واسعة، وفي تحليل علمي موضوعي، وألبسوا كل ذلك ثوباً قشيباً برّاقاً، وعُنُوا بصفة خاصة بما وجهه المستشرقون من مطاعن إلى الإسلام، واتهامات للمسلمين، وما أثاروه من شكوك وريب في الشريعة الإسلامية وحضارة الإسلام، وتدوين العلوم الإسلامية وتاريخها وأحوال حكّام المسلمين وسياستهم ومواقفهم، وفي مقدمة أولئك الكتاب وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني صاحب «السيرة النبويّة» المعروفة في مجلدين ضخمين وصاحب كتاب «الفاروق» الذي هو من أقوى الكتب التي ألّفت في سيرة الخليفة الراشد والحاكم الإسلامي العادل

عـمـر ابن الخطاب رضي الله عنه، بل عن بطل من أبطال أي أمة في أي بلاد، وهذا عدا مؤلّفاته القيّمة عن سيرة الإمام أبي حنيفة النعمان، وعن سيرة الإمام الغزالي، ومولانا جلال الدين الرومي، والمأمون الخليفة العباسي، أما كتاباه: «مكتبة الإسكندرية» و «الجزية في الإسلام» فقد كان لهما فضل كبير في إزالة مركّب النقص عن نفوس الناشئة المسلمية، وفي إنشاء الاعتزاز بتاريخهم في نفوسهم، وكذلك كتاب «الانتقاد للتمدن الإسلامي» للكاتب جرجي زيدان، وقد أدى بذلك فرض كفاية عن العلماء المسلمين في العالم الإسلامي، ليس عن علماء مصر فقط -الذين كانوا أحق بذلك، كما قال العلامة السيد رشيد رضا الذي نشر هذا الكتاب في مصر- بل عن علماء المسلمين كافة.

وقد أكمل هذه السلسلة في البحث الإسلامي وتوَّجَها بكتب لا يوجد نظيرها في المكتبة الإسلامية المعاصرة تلميذه النابغة العلاّمة السيّد سليمان الندوي الذي أكمل «السيرة النبويّة» لأستاذه، وضم إليها خمسة مجلدات، أصبحت بها موسوعة في السيرة النبويّة، وفي علم التوحيد، والعقائد، والعبادات، والأخلاق، والسياسة،

والمعاملات، وكتابه الفريد «خطبات مدراس» الذي نقل إلى العربية بعنوان: «الرسالة المحمديّة»، وكتابه «أرض القرآن» يعني أرض النبوات، و «صلات الهند بالعرب» و «الخيّام» و «سيرة أم المؤمنين عائشة» و«الإمام مالك»، و «الملاحة عند العرب»، نموذج من الطراز الأول للتحقيق والدراسات الطويلة المضنية، والمجهود العلمي المستنفد للطاقة، وكله في أسلوب أدبي بليغ، وكتابة عالية رشيقة.

ويضاف إلى هذه القائمة المشرفة، اسم الكاتب الإسلامي الكبير والداعية الشهير الأستاذ السيّد أبو الأعلى المودودي، منشئ الجماعة الإسلامية، صاحب الكتابات الإسلامية القويّة والكتب القيّمة، ككتاب «الجهاد في الإسلام» و «تنقيحات» و «تفهيمات»، ورسائل كثيرة أخرى في القضايا الإسلامية المعاصرة، وهو رئيس تحرير مجلة «ترجمان القرآن» التي كانت مدرسة فكرية إسلامية مستقلة، وهو صاحب أسلوب خاص يخلو عن الاعتذار والدفاع، ويمتاز بالثقة والاعتزاز مع سلاسة وانسجام، وتعبير أدبي علمي، هذا مع الاحتفاظ ببعض نقط الخلاف التي لا محل لها هنا.

ومن صنع الله تعالى بالجيل المسلم الصاعد أنه قيّض

له في هذه الفترة الحالكة من الحكم الإنجليزي -الذي كان يحمل معه منهجاً تعليمياً يصوغ الجيل الجديد صياغة غربية- مؤلفين للكتب الدراسيّة لتعلم اللغة الأرديّة -المعترف بها رسمياً- حاذقين لَبقين مسلمين في العقيدة والسلوك، كان لهم فضل في وقاية الجيل الجديد من الإفلاس الإسلامي الثقافي، والانحراف الديني العلمي، وقد أسندت وزارة التربية ولجنة المقّررات الدراسية تأليف سلسلة من الكتب لتعليم لغة أردو إلى الأستاذ محمد إسماعيل الميرتهي، وهو من كبار الأدباء والمؤلفين والشعراء الذين يراعون نفسية الأطفال ومداركهم ويستطيعون تطعيم اللغة بالدين، وحب الأخلاق الفاضلة، ويقتدرون على الشعر السلس البليغ المحبّب للأطفال، فألّف سلسلة من الكتب يبلغ عدد أجزائها سبعة كتب، كانت كما يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في تاريخ شعراء أردو «كل رعنا»: إنه لم توفق وزارة التربية بالهند لتأليف كتب أفضل منها للأطفال، ولا يزال كثير من الكتّاب والأدباء والأساتذة في مثل سنّي يحفظون الشيء الكثير من الشعر البليغ المنسجم الذي جاء في هذه السلسلة، والذي يغرس الإيمان وإجلال الله وتقدير نعمه، وحبّ الأخلاق القويمة في قلوب القرّاء.

زد إلى ذلك أن أبناء البيوتات، وكثيراً من أطفال الهنادك في الطبقات الاستقراطية والمثقفة، كانوا يدرسون اللغة الفارسية، وكان من الكتب المقررة للدراسة والعمود الفقري في هذا المنهج كتاب «كريماً ما مقيماً» و «كلستان وبوستان» للشيخ مصلح الدين الشيرازي الملقب في الشعر بـ «سعدي»، وهما من الأدب العالمي لتعليم الأطفال وتعليم الأخلاق والحكم وتجارب الحياة في القمة، وقلّما أُلّفت كتب في لغات أخرى -في حد معلوماتنا- أرقى أسلوباً ولغة، وأكثر تأثيراً في النفوس، من الكتابين المذكورين، وكان لكل ذلك أثر عميق، باقٍ في نفسية المتعلمين، أقل مظاهره الاحترام للدين ولأهل الفضل والاحتشام والتماسك.

ويلي كل ذلك مجال الروايات التاريخية، والقصص الأدبية، وكل منا يعرف تأثيرها وسحرها على العقول والقلوب، وقدرتها على قلب الحقائق، وتصوير القبيح جميلاً، والجميل قبيحاً، وقد وفق الله عدداً من الكتّاب القديرين والمنشئين المترسّلين لتأليف كتب في الروايات التاريخية الإسلامية، وفي التعليم للسلوك الإنساني الشريف، والحياة العائلية الكريمة، وحسن العشرة. كان في مقدمة كتّاب الروايات التاريخية الأديب الكبير الشيخ عبد الحليم «شرر»

اللكهنوي، ومن رؤساء الطبقة الثانية (الكتّاب في الحياة العائلية الكريمة وحسن العشرة) الأديب الكبير والعالم الضليع الشيخ نذير أحمد الدهلوي، وبعده الأستاذ راشد الخيري، وكان لكتبهم رواج كبير في الأسر المسلمة الواعية.

وهنالك حقيقة تاريخية أخرى لا يمنع الحياء عن تقريرها وتسجيلها، فإنها أمانة تاريخية، وهي أن من سمات علماء الهند البارزة، أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع والنشر الفني بعد ثورة ١٨٥٧م، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة لا يزال لها أنصار وأتباع ومقلّدون، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النّكِد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر، والهائمين بهما، تلك الفجوة التي جنت على الدّين والأدب في وقت واحد!.

في ضوء هذه الخلفيات والمراحل التي مرّ بها الشعب

المسلم الهندي، والعوامل التاريخية والنفسية التي خضع لها بحكم الطبيعة وسنّة الله تعالى في خلقه، تكونت مدرسة إسلامية أدبية هندية لها مميزاتها وطابعها، لا يسوغ لمؤلف في تاريخ الأدب العربي والثقافة الإسلامية العامة أن يغض الطرف عنها ويبخس حقها، وبسبب كل ذلك اختلفت نظرة المعنيّين بالآداب واللغات، والمدرّسين والدارسين للغة العربية وآدابها -بصفة خاصة- إلى الأدب العربي وتقويمه فلا يستطيعون -بحكم ارتباطهم بالإسلام ونظرهم إلى اللغة العربية كلغة القرآن والحديث والسيرة ومفتاح مكتبة الإسلام- أن يفصلوا بين الأدب العربي والدين بل إنهم أصبحوا يعتقدون بعد دراستهم الأمينة المخلصة لثروة اللغة العربية وكنوزها الأدبية، أن الأدب العربي يستمدُّ من الدين القوة والحيوية والجمال والتأثير، وكما قلت في مقدمة كتابي: «مختارات من أدب العرب»(١):

(وقد كان هؤلاء الكتّاب المؤمنين الذي ملكتهم فكرة أو عقيدة، يكتبون لأنفسهم ويكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم، مندفعين منبعثين، فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم، ويتحرّق قلبهم فتنهال عليهم المعاني، وتطاوعهم

(١) «مختارات من أدب العرب»، ص/١٥، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية.

الألفاظ، وتؤثر كتابتهم في نفوس قرّائها، لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب).

كل هذا حمل أبناء هذه الدار التي تلتقون فيها أيّها السادة! على أن يؤلّفوا لأطفال المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المدارس الهندية مقررات دراسية على هذا المنهج التربوي الإسلامي، من المرحلة الأولى إلى المرحلة الأخيرة، من قصص للأطفال، إلى سلسلة من القراءة العربية، إلى مجموعات من «منثورات» و «مختارات»، إلى رسائل عرض ونقد للأدب العربي، إلى كتاب في تاريخ الأدب العربي (مع إشادة بالمدرسة العربية الهندية) لا يزال في دور التكوين والتأليف.

وبذلك نادى الكتّاب والباحثون في هذه المؤسسة بالنظر الجدّي، والتأمّل الفاحص في هذا الموضوع، واستعراض المكتبة العربية من جديد، ذلك مع عدم إنكار قيمة أدب الفن وأدب التسلية والترفيه، وأدب الغزل والمدح، والأدب الذي ظهر لتحقيق أغراض مؤقّتة شخصية وجماعية، فلكل قيمته، ومكانه الفسيح في مكتبة الأدب وفي قلوبنا، بل نتمتع به ونتذوقه، ونراه حاجة من حاجات الحياة، ومطلباً من مطالب الفطرة البشرية السليمة

المرحة، ولكنها محاولة لإعطاء الأدب الهادف المفيد حقه، وإحلاله المحل اللائق والاهتمام الجدير به.

ونحمد الله على أن هذا النداء لم يكن صيحة في واد، ونفخة في رماد، ولقد تجاوبت له الأوساط الأدبية في مهد اللغة العربية، وكبار الأساتذة والنقاد في الجامعات العربية، وقد سبق بعضهم إلى تبنّي هذه الفكرة واحتضانها، والدعوة إليها، نذكر تقريراً للواقع، واعترافاً بالفضل أستاذين جليلين، هما الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ومعالي الشيخ السيد عبد العزيز الرفاعي، فقد أنشأا مكتبة عامرة من قصص التاريخ الإسلامي وتعريفاً بأبطال المسلمين وزعمائهم، والمغمورين من الأدباء والشعراء من الطراز الأول، يستحقان بذلك شكر علماء التربية وأصحاب الدعوة للفضيلة وعشّاق الأدب.

وعلى هذه الفكرة والمبدأ، انعقدت ندوة عالمية للأدب الإسلامي في ١١-١٣ من جمادى الآخرة ١٤٠١هـ (١٧-١٩ من أبريل ١٩٨١م) في جامعة ندوة العلماء حضرها لفيف من كبار الأدباء والكتّاب وأساتذة الأدب العربي في الجامعات السعودية، والخليج العربي، ومصر، وعلى هذه الفكرة، ولتمديدها وتوسيعها، وترسيخها، وتدعيمها، تألفت

رابطة الأدب الإسلامي وأعلن عن قيامها في شهر صفر عام ١٤٠٥هـ (الموافق لشهر نوفمبر عام ١٩٨٤م) بدعوة من عدد من الأدباء والنقّاد وأساتذة الجامعات، ولا سيّما بعض الأساتذة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، والجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة، والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه، فها هي الندوة الأولى لهذه الرابطة الحبيبة ندعو الله تعالى ونرجوه أن تكون بداية عهد جديد، وانتفاضة أدبية إسلامية، في فجر القرن الخامس عشر الهجري فيكتب المؤرخون في المستقبل أنه كان قرن النهضة الأدبية الإسلامية، كما كان قرن الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي بالمعنى العام -وبالله التوفيق.